الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التّالي هذا الوصف الذى شرحناه، أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة، محدثًا[١] لنفسه، مُصغيًا إلى هواه ووسوسة عدوّه [فى أمور دنياه][٢]، متوهّمًا للظنون، عاكفًا على الأمانى، حقّت عليه أن يكون بمعنى ما[٣] قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ يعنى: إلا تلاوة القرآن لا غير ﴿وَإِنْ هُم إِلا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين. كما أخبر عن الظّانين فى قوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]، وبمعنى ما قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

فالقرآنُ من أجلِّ آيات الأرضين والسموات الدالّة على فاطرهما ومنزّله، وكان بوَصْفِ من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز، متهاونًا به، مناجيًا لغيره، أن يقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء:٤٧].

وبمثل مَن يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضرّه عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل مَن حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضرًا بجسمه حجة عليه، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾

---

(١) فى (ك): «محادث لنفسه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط). «بمعانى ما».

ثم قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: عن فقه الخطاب، فلم تسمعه القلوب ولم تعه ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦] يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة.

ويقال: إنّ العبد إذا تلا القرآن واستقام نَظَرَ اللهُ إليه برحمته. فإذا قرأ القرآن وخلّط ناداه الله عزّ وجلّ: ما لك ولكلامى وأنت معرض عنى؟ دع عنك كلامى إن لم تتب إلىّ.

وروينا فى الإسرائيليات: أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيه موسى عليه السلام: مُرْ عُصاةَ بنى إسرائيل أن لا يذكرونى، فإنى آليتُ على نفسى أن أذكر من ذكرنى، وإنّى أذكرهم بلعنة.

وكان بوصف من أخبر عنه، إذ يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩] الآية. وهذا وصفُهم الظن الكاذب والرجاء المختلف، اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصَوْا خالقهم عاجلاً، وتمنوا عليه المغفرة آجلاً، جهلاً منهم بحكمته، وإعراضًا عن أحكامه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾، ثم أخبر عن علمهم بذلك، علم قولٍ وخبر لا علم يقين ومعاينة، فقال سبحانه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الاعراف:١٦٩] أى: قرؤوا هذا وعلموه ولم يعملوا به، فلم ينتفعوا بشىء منه، فكان هذا توبيخًا لهم وتقريعًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]، وفيها وجه غريب: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أى محوه بترك العَمل به والفهم له، من قولك: درست الريحُ الآثارَ، إذا محتها. وخطٌّ دارس، ورَبْع دارِس: إذا مُحى وعَفَى أثره. وهذا المعنى مواطئ لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:١٠١ ـ ١٠٢] أى: ما تتبع وتهوى. ومواطئ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا

بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧] فسمَّى تركَ العمل منهم به فى كل حالةٍ طرحًا له وإلقاءً ونفيًا له وبيعًا له، وبالدنيا اشتراء.

وكلّ آية فى التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، علَّمَ مَن علمه، [وجهله من جهله][1]، كقوله تعالى فى ذكر النار: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]. وقال عزّ وجلّ فى خبرها: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وقال بعضُ السّلف: إنّ العبد ليفتتح السورة فتصلّى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإنّ العبد ليفتتح السورة فتلعنه حتى يفرغ منها. فقيل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه، وإلا لعنته.

وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: «ألاَ لَعْنَةُ اللهِ علَى الظَّالمينَ» وهو ظالم، «ألاَ لَعْنَةُ اللهِ علَى الكَاذبين» وهو منهم.

وقال سفيان فى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الاعراف:١٤٦] قال: أصرف عنهم فهمَ القرآن.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا عظّمت أمتى الدّينار والدّرهم نُزع منها هيبةُ الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر حُرموا بركةَ الوحى».

قال الفضيل: حُرموا فَهْمَ القرآن.

وفى الأخبار من ذَمِّ قراءةِ البطّالين[2] أكثرُ من أن تذكر، فمنها ما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثرُ منافقى أمّتى قُرّاؤها».

وكان الحسن يقول: إنكم اتّخذتُم قراءةَ القرآنِ مراحل، وجعلتم الليل جَملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنّ مَنْ كان قَبلكُم رأوه رسائلَ أتتهم من ربّهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «ذم القراءة من البطالين».

وكان ابنُ مسعود من قَبْله يقول: أُنزل عليهم القرآنُ ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدَهم ليتلوَ القرآنَ من فاتحتِه إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا، وقد [أسقطه كله] وأسقط العملَ به.

وفى حديث ابن عمر وحديث جُندب: لقد عِشنا برهةً من دَهْرنا وأحدُنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورةُ على محمدٍ ﷺ، فنتعلم حلالها وحرامها، وأمْرها وزجْرها، وما ينبغى أن نقف عليه منها، كما تعلَّمون أنتم القرآن. ثم بعدُ لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، لا يدرى ما أمْره ولا زجْره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه، فينثره نَثْرَ الدَّقَل[1].

وهذا كما قال؛ لأنّ المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره، والانتهاء عن زواجره، إذ حِفْظُ حدودِه مُفْترضٌ ومسؤولٌ عنه العبد، ومعاقبٌ عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٥] أى العمل به ثقيل، وإلا فقد يسَّره للذكرى.

ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه». وفى بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه».

وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن قال: قرأتُ القرآن على شيخ لى، فلما ختمتُ رجعتُ إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال: جعلتَ القرآن علىَّ عملاً، اذهب فاقرأ على الله عزّ وجلّ، فانظر ماذا يُسمعك منه ويُفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لا يحفظ إلا الجزء والجزءين، والسور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السبع أو البقرة والأنعام علَمًا فيهم. وقُبض رسول الله ﷺ عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤوا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلا ستة، اختُلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم:

(١) الدَّقَل: أردأ التمر.

ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد.

وختم ابن عباس على أُبيٍّ بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت، وقرأ أهل الصفة على أبى هريرة. وكلّهم كان متبعًا لأوامره، مجتنبًا لزواجره، عالمًا به، فقيهًا فيه.

وقال يوسف بن أسباط، وقد قيل له: إذا ختمتَ القرآن بأى شىء تدعو؟ فقال: بأى شىء أدعو!! أستغفر الله عزّ وجلّ مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول: إنى لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرتُ ما فيه خشيتُ المقت فأعدل إلى التسبيح والإستغفار.

واعلم أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه، والفهم له، والمشاهدة منه، والمعاملة به؛ لأنّه من أكبر شعائر الله فى خَلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نعمه الكاملة علينا.

وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أُعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله. فإذا عظُم المتكلم فى قلبه، وكَبُر فى همِّه[1]، أنعم تدبّر كلامه، وأطال الفكرَ فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به، والحاجة إليه، فاتّقَى وحذر، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١]؛ لأنّ كلّ كلامٍ موقوف على قائله، يعظم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه. والله[2] عزّ وجلّ ليس كَمِثْلِه شىءٌ فى العظمة والسّلطان، وليس ككلامه كلام فى الأحكام والبيان.

وقرأتُ فى سورة الحنين من التّوراة: «يا عبدى أمَا تستحى منى، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله،

(١) فى (ط): «فى فهمه» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «قال الله» وأثبت ما فى (ك).

وتقرؤوه وتتدبره حرفًا حرفًا؛ حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابى أنزلته إليك، انظر كم وصلتُ لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، [وكم فصّلتُ عليك فيه من العتاب][1]، فتأمَّلت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنى[2]. أفكنتُ أهونَ عليك من بعض إخوانك؟!

أى عبدى، يقعد إليك بعض إخوانك، فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلّم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأتَ إليه أن كُفَّ، وها أنا ذا مقبلٌ عليك ومحدِّث لك، وأنت معرض بقلبك عنى، فجعلتنى أهونَ عندك من بعض إخوانك». أو كما قال. [كتبتُ هذا حفظًا وتحريت الألفاظ، ولم أخرم المعانى][3].

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه، وشدّة الحجاب، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٧] أى خفى علمها، يعنى الساعة، فثقلت عليهم، فسمَّى ما خفى علمه ثقيلاً. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) ساقطة من (ط)، وفى (ك): «فتأمل طوله وعرضه».

(٢) فى (ط): «عنه».

(٣) ساقطة من (ط). وقوله «لم أخرم المعانى»: أى لم أسقط منها شيئًا.